ابن قنفذ القسنطيني حياته وكتابه وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام.

أ. سليمان الصيد – رحمه الله -

حياة ابن قنفذ القسنطيني:

إن العصر الذي عاش فيه ابن قنفذ القسنطيني عصر مزدهر، إذ بلغت فيه المعارف أوجها من جميع النواحي الدينية والعلمية والأدبية وغيرها. وقد أدى إلى نشاط هذه الحركة الثقافية،وقوع تنافس في هذا المجال بين الدول الثلاث التي كانت تحكم المغرب العربي في ذلك الوقت، وهي الدولة المرينية في المغرب، والدولة العبد الوادية- الزيانية في الجزائر، والدولة الحفصية في تونس.

في هذا الجو الثقافي ولد ابن قنفذ القسنطيني، وقد أخذ تعليمه بمسقط رأسه مدينة قسنطينة وكانت حاضرة علم في ذلك الزمان بالجزائر، ثم انتقل إلى المغرب وبقي هناك ثماني عشرة سنة يتعلم، ولم يكتف بهذا فقط بل انتقل إلى تونس ليغترف من مناهل العلم فيها، لهذا يعد ابن قنفذ من العلماء الأفذاذ المشهورين الذين استوعبوا جميع معارف عصرهم. وبذلك استطاع أن يؤلف في جميع العلوم والفنون التي كانت مشهورة في عهده، وكتبه العديدة في شتى المجالات أكبر دليل على ذلك.

حياته: [1]

هو العالم المؤرخ الأديب مفخرة الجزائر، أحمد بن حسن الخطيب بن علي بن ميمون بن قنفذ القسنطيني الشهير بابن قنفذ وابن الخطيب. وقد عرفه صاحب نيل الابتهاج بقوله:"الإمام العلامة المتفنن الرُحلة القاضي الفاضل المحدث المبارك المصنف".[2]

ولد سنة 741هـ بمدينة قسنطينة، وكانت حاضرة علم في ذلك الوقت، في وسط عائلة اشتهرت بالعلم والتدين، وتوفي رحمه الله سنة 810 هـ[3].

عائلته:

يمتاز ابن قنفذ عن كثير من العلماء بأنه نشأ بين أحضان عائلة عريقة في المجد العلمي، فجد والده حسن بن علي بن ميمون بن قنفذ المتوفى سنة 664 هـ كان من أكابر علماء قسنطينة وأكثرهم عملا، فهو قد تولى مهنة الخطابة في الجامع بقسنطينة نحو خمسين سنة، كما تقلد القضاء بها نحوا من الزمن ثم استعفى فعفي[4]

(1) – أشير هنا إلى أنني كنت قد كتبت ترجمة عن ابن قنفذ القسنطيني نشرت في مجلة العروبة القسنطينية، العدد الأول وذلك في شهر جانفي 1964.

(2)- ص 75 من نيل الابتهاج لأحمد بابا التنبكتي ألفه عام 1005 هـ.

(3) هناك من يقول أنه توفي سنة 809 هـ كالمؤرخ الزركشي.

(4)"وفيات ابن قنفذ" ص 54، طبع مصر.

أما والده حسن بن علي بن علي... الخ، المتوفى سنة 750 هـ فهو من العلماء الأجلاء الذين قاموا بأداء الأمانة العلمية – على أكمل وجه – بالتدريس والتأليف، فكتابه القيّم الذي ألفه وأسماه "المسنون في أحكام الطاعون" وهو كتاب مهم، عالج فيه أعقد قضية حارت فيها العقول في عهده ونعني بها مسألة انتشار الوباء والعدوى، فكتابه هذا ألفه في وقت حرج كانت الأنفس البشرية تعاني فيه من ويلات الموت كل يوم، وقد تكلم فيه عن:

1 - فتنة الوباء[1] الذي اجتاح المغرب العربي وغيره في ذلك العصر.

2 - مسألة اختلاف طلبته الذين قالوا:هل يحق للإنسان أن يبتعد عن الشخص الذي مرض بهذا الداء الوبيل، أو يترك الأمر للأقدار؟ كما أن لوالده – زيادة على كتابه المسنون- آراء صائبة في الفقه مسطرة في النوازل الفقهية. ومترجمنا – ابن قنفذ- هذا لم يكن سليل عائلة عريقة في العلوم من ناحية أجداده –من جهة الأب- فحسب، بل ان جده من قبيل الأم الشيخ يوسف الملاري كان رجلا عالما متصوفا، توفي سنة 764 هـ، ودفن بزاويته في ملارة[2] على مرحلتين إلى الغرب من قسنطينة، وكان سلوكه في طريق التصوف على يد والده.[3]

(1) في هذا الوباء قال ابن قنفذ في وفياته ص 56 وفي سنة 750 هـ وقع الوباء الاول العام في الارض، وتوفي في هذه السنة كثير من الفقهاء، ويلاحظ ان أباه حسن قد توفي في هذه السنة ولعله توفي في آخرها بعدما ألف "السنون في كتاب الطاعون".

(2) هذه الزاوية توجد في مشتى ملارة ببلدية تسدان في الشمال الغربي من فرجيوة على بعد 12 كلم منها، وفرجيوة الآن دائرة تابعة لولاية جيجل حاليا

(3) "وفيات ابن قنفذ" ص 58.

رحلته في طلب العلم:

بعدما تعلم ابن قنفذ بقسنطينة واغترف من مناهل العلم بها، وأخذ معارفه الصحيحة من فطاحلها كأبي علي حسن بن أبي القاسم بن باديس وغيره، تاقت نفسه الطموحة إلى التزود من العلوم،فسافر إلى المغرب في سنة 759 هـ وكان إذ ذاك بالغا من العمر ثماني عشرة سنة،وبقي هناك ثمانية عشر عاما، فحصّل علوما كثيرة، واعتنى بلقاء الصالحين، وجال بلادها فلقي فيها أبا القاسم السبتي وأخذ عنه وقال في وفياته بعد الثناء عليه (وبالجملة فهو ممن يحصل الفخر بلقائه).[1]

وأبو القاسم السبتي هذا هو صاحب كتاب (رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة) وقد زار ابن قنفذ وهو في القطر الشقيق المغرب مدينة سلا، ولقي بها الولي الصالح العلامة ابن عاشر وعند رجوعه من المغرب بعد غيبته الطويلة، مر على مدينة تلمسان وكانت إذ ذاك حاضرة علم وعاصمة لـ(الدولة العبد الوادية - الزيانية) [2] الجزائرية سنة 776هـ .وبعد بقائه في الوطن نحو سنة، عزم على شد الرحال في طلب العلم إلى تونس،فزارها في السنة الموالية لقدومه من المغرب ونعني بها سنة 777 هـ فهو يقول عند ذكره للعلامة ابن عرفة: ((قرأت عليه بعضه (أي المختصر الكبير) وأنعمت بمناولته وإجازته وذلك سنة 777هـ بدويرة جامع الزيتونة ووجدته على حال اجتهاد في العلم والقيام بالخطبة))[3]

---

1 - "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" ص 75، طبع مصر.

2 - حكمت هذه الدولة الوطن الجزائري من سنة 633 إلى 962هـ

3 - من الوفيات ص 63

كما تقابل في السنة نفسها مع الفقيه أبي الحسن البطرني، فاستفاد منه وروى عنه.

مشايخه:

بفضل كد ابن قنفذ واجتهاده وعصاميته، استطاع أن يدرس العلوم على نخبة ممتازة من أشهر علماء زمانه في مختلف العلوم والفنون بالمغرب العربي، فقد اخذ العلم عن ابي علي حسن بن باديس[1] والعلامة أبي عبد الله محمد بن يحي التلمساني[2] والإمام المحدث الرحلة الخطيب ابن مرزوق الجد التلمساني[3] (من الجزائر)، والعالم الفاضل الشريف أبي القاسم السبتي [4] والشيخ أبي زيد اللجائي [5] والإمام النحوي ابن حياتي [6] والحافظ المفتي أبي محمد عبد الله الوانغيلي الضرير[7] والعلامة الحافظ القباب [8] والشيخ الحافظ الحجة أبي

1 - هو القاضي الشهير الفقيه المحدث له شرح لمختصر السير لآبي فارس توفي سنة 787هـ.

2 - شارح كتاب الجمل في المنطق توفي سنة 771هـ.

3 - توفي سنة 781هـ وهو شخصية جزائرية فذة حرية بالبحث والدراسة، وله تآليف منها شرحه الجليل على عمدة الأحكام في أسفار خمسة وغير ذلك.

4 -صاحب التآليف المفيدة، أشهرها: رفع الحجب المستورة،توفي سنة 761هـ.

5 -توفي سنة 773هـ بفاس.

6 -توفي سنة 781هـ.

7 -توفي سنة 779هـ بفاس.

8 -توفي سنة 779هـ بفاس، له شرح حسن على قواعد القاضي عياض وشرح على بيوع ابن جماعة التونسي.

عمران موسى العبوسي [1] (من المغرب)،والإمام ابن عرفة[2]، والأستاذ الفقيه أبي الحسن البطرني [3] (من تونس)، والعلامة الكاتب الشهير لسان الدين بن الخطيب الغرناطي [4] إلى غير ذلك من الأعلام.

تآليفه:

يمكن أن تقسيم الكتب التي ألّفها- العلامة ابن قنفذ- حسب العلوم المختلفة إلى الأقسام الآتية، غير أن هذا التقسيم لا يقصد به التقصيَ والشمول، لان الكتب المؤلفة- في عدة فنون- كثيرة ومتنوعة، ومجموعها- في الوقت الحاضر- غير مطبوع ونادر الوجود، ولا يمكن الاطلاع على جميعها ما دامت هذه النفائس الثمينة في حكم المخطوطات وموزعة في عدة بلدان في أنحاء العالم، وفي كثير من هذه الزوايا والمكتبات الغنية بالوثائق المخطوطة، بل إن أسماء الكثير من هذه الكتب لو لم يذكرها المؤلف[5] لما أمكن لنا أن نتعرف على أسمائها، لكل هذا يمكن حصر أغلبها و أدخالها تحت عنوان من العناوين كما يلي:

---

1 - المتوفى سنة 779هـ قال فيه ابن قنفذ في وفاته ص 60 (كان له مجلس في الفقه لم يكن لغيره في زمانه ولازمته في درس المدونة والرسالة بمدينة فاس مدة ثماني سنين)

2 -هو العلامة التونسي المشهور له مصنفات أرفعها: المختصر الكبير في فروع المذهب.توفي سنة 803هـ.

3 - توفي سنة 739هـ.

4 - هو ذو الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب الغرناطي الأندلسي، توفي شهيدا بفاس سنة 776هـ.له تآليف عدة منها:الإحاطة في أخبار غرناطة ورقم الحلل في نظم الدول وغيرها.

5 - هذه الكتب عددها المؤلف في آخر وفياته، كما ذكرها ابن مريم في آخر بستانه، وسبب ذلك كما قال ابن قنفذ: « وقد سألني رجل عما وقع لي من تآليف ليكتب ذلك في رحلته فأمليت عليه ما صادف زمانه من ذلك ثم ذكر أسماء كتبه».

أ- العلوم الفقهية:

1 -"تقريب الدلالة في شرخ الرسالة" في أربع أسفار.

2 -"معاونة الرائض في مبادئ الفرائض".

3 - «أنوار السعادة في أصول العبادة» وهو شرح لقوله صلى الله عليه وسلم «بني الإسلام على خمس...» الحديث.وفي كل قاعدة من الخمس وأربعين حديثا و الأربعين مسألة.

4 -"بغية الفارض من الحساب والفرائض".

5 -"تفهيم الطالب لمسائل أصول ابن حاجب".

6 -"شرح الارجوزة التلمسانية في الفرائض".

ب- العلوم العربية:ألف منها:

1- "هداية السالك في بيان ألفية ابن مالك".

2 -"الإبراهيمية في مبادئ العربية".

ج-علم المنطق:له فيه:

1 -"إيضاح المعاني في بيان المباني".

2 -"تلخيص العمل في شرح الجمل في المنطق للخونجي".

د-العلوم الرياضية (من فلك وحساب):ألَف فيها الكتب الآتية:

1 -"القنفذية في إبطال الدلالة الفلكية".

2 -"تيسير الطالب في تعديل الكواكب".

3 -"تحصيل المطالب وتكميل المآرب".

4 -"سراج الثقات في علم الأوقات".

5 -"حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب"وهو شرح تلخيص ابن البناء.

6 -"شرح منظومة بن أبي الرجال المسماة المنظومة الحسابية في القضايا النجومية".

7 -"وقاية المؤقت ونكاية المنكت".

العلوم التاريخية:

لابن قنفذ براعة ومقدرة في استقصاء التاريخ وكتابة التراجم والسير، فهو قد ألف –في هذا الفن- الكتب المهمة التالية:

1 - "أنس الفقيروعز الحقير" في رجال من أهل التصوف كابي مدين شعيب دفين العباد بتلمسان وغيره.

2 - "المسافة السنية في اختصار الرحلة العبدرية".

3 - "تحفة الوارد في اختصاص الشرف من قبل الوالد، وهو غريب".

4 - "وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام"، وهو من أجل الموضوعات في السير لاختصاره.

5 - "شرف الطالب في أسنى المطالب".

6 - "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية".

7 - طبقات علماء قسنطينة"

8 - "إدريسية النسب في الامصاروالقرى وفي العرب".

وله أيضا الكتب التالية:

1 - اللباب في اختصار الجلاب.

2 - تسهيل العبارة في تعديل الإشارة.

3 - بسط الرموز الخفية في شرح عروض الخزرجية.

4 - علامة النجاح في مبادئ الإصلاح.

5 - تقييدات في مسائل مختلفات.

6 - التخليص في شرح التلخيص.

7 - أنس الحبيب عند عجز الطبيب.

هذا هو التراث المجيد الذي تركه لنا العلامة ابن قنفذ.غير أنه يلاحظ مع الأسف أن هذه الكتب التي تدل على غزارة علمية ومعارف متعددة، والتي تعبر عن هذا التراث الفكري لا زالت مخطوطة في طي الخفاء، ويحتاج نشرها وبعثها إلى مجهود متواصل من الجميع، وهمة وطنية واعتناء قومي بإحياء تراثنا الثقافي الخالد الذي هو جزء من حياتنا، وفي الحقيقة أن نشر وطبع التراث الجزائري مسؤولية لا تقع على الدولة وحدها، بل على الشعب أيضا وبالأخص المنظمات الثقافية.

كتبه المطبوعة:

1 -"كتاب الوفيات": طبع لأول مرة في الهند ستة 1911 بإشراف مولوي محمد هدايت حسين،ثم طبعه المستشرق الفرنسي هنري بيريس في مصر بدون تاريخ، ثم طبعه الأستاذ عادل نويهض في بيروت 1971.

وكتاب الوفيات هو تكملة وذيل لكتاب "شرف الطالب في أسنى المطالب"[1] تكلم فيه المؤلف ابن قنفذ عن تاريخ وفيات الصحابة والمحدثين والعلماء الأدباء، ابتداء من المائة الأولى للهجرة إلى المائة الثامنة منها.

1 - هذا الكتاب شرح فيه منظومة أبي العباس أحمد بن فرج الإشبيلي في مصطلح الحديث.

وبعبارة أوضح ابتداء من تاريخ وفاة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم سنة 11 هـ إلى تاريخ وفاة الأستاذ الجليل المفتي أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمان المراكشي الضرير، المتوفى سنة 807 هـ،أي إلى تاريخ وفاة المؤلف رحمه الله بثلاث سنوات. ولشهرة هذه " الوفيات " وقيمتها التاريخية، فقد ذيلها العلامة المؤرخ أبو العباس أحمد الشهير "بابن القاضي" [1]، وألف كتابا لذلك سماه " لقط الفرائد" ابتدأه من أول المائة التاسعة إلى تمام المائة العاشرة.

كما قام بنظم "الوفيات" الوزير الأديب محمد بن علي الفشتالي[2] في لامية مشهورة ضمّن فيها وفيات ابن قنفذ من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى نهاية المائة الثامنة، وزاد على ذلك إلى تمام سنة ألف هجرية.

هذا وقد ذيّل هذه اللامية الثمينة، الأديب المكلاتي [3] وكتاب "الوفيات" لابن قنفذ أيضا قام بطبعه الأستاذ محمد حجي في الرباط (المغرب) سنة 1976 مع كتابين آخرين هما "وفيات الونشريسي" "ولقط الفرائد" لأحمد القاضي، وطبع الكتب الثلاثة في كتاب واحد بعنوان "ألف سنة من الوفيات".

---

1 - هو صاحب كتاب جذوة الاقتباس ودرة الحجال وغيرهما، توفي سنة 1025 هـ.

2 - توفي سنة 1021هـ.

3 - ذكره الأستاذ عبد الله كنون في كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي ص256.

2 - أنس الفقير وعز الحقير: هو كتاب صنفه ابن قنفذ في ترجمة الشيخ ألي مدين دفين تلمسان [1] وهو كتاب ترجم فيه لعدة أشخاص من فاس ومراكش،وكذلك لبيوتات شهيرة في عهده، قام بنشره وتصحيحه وطبعه في الرباط (المغرب) سنة 1965 الأستاذان محمد الفاسي وأدولف فور.

3 - "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية" [2] كتاب لابن قنفذ، قد حققه وأعده للطبع الشيخ محمد بن أبي شنب[3] غير أن وفاته رحمه الله حالت دون ذلك. ولأهمية هذا الكتاب فقد نشرت المجلة السيوية الفرنسية مقتطفات منه.وقد طبع الكتاب طبعتان، وقد قام بتقديم وتحقيق الكتاب وطبعه في تونس سنة 1968م الأستاذان محمد الشاذلي النيفروعبد المجيد التركي.

1 - هو شيخ المشايخ وسيد العارفين الإمام المشهور أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي، توفي سنة 594 هـ ودفن بالعباد بتلمسان.

2 - هي دولة كانت معاصرة لدولتي بني زيان في الجزائروبني مرين في المغرب امتلكت تونس وغيرها من سنة 603هـ إلى سنة 981هـ.

3 - هو العلامة الجزائري الدكتور محمد بن ابي شنب توفي سنة 1347هـ- 1929م

ابن قنفذ وكتاب "وسيلة الإسلام":

إن هذا الكتاب الذي ألفه العلامة ابن قنفذ القسنطيني في السيرة النبوية هو كتاب نفيس له قيمة كبيرة، استطاع مؤلفه أن يوضح فيه أشياء في السيرة بأسلوب مختصر جذاب يدل على مقدرة في التأليف وإحاطة شاملة ودقيقة بالسيرة النبوية الكريمة من جميع جوانبها.فابن قنفذ قد أجاد فعلا في كتابه وسيلة الإسلام إجادة تامة.فهو بفضل معرفته الواسعة وثقافته المتنوعة استطاع أن يأخذ لب السيرة النبوية ويؤلف فيها، يسلط على جوانب منها أضواء هي في حاجة إلى إيضاح وتبيين.فمؤلف كتاب "وسيلة الإسلام" حقيقة له براعة فائقة في أخذ الحوادث التاريخية وصوغها بأسلوب شيق له إشراق ووضوح وفيه قناعة وتحقيق وتدقيق.

هذا وإن ابن قنفذ قد اعتمد في كتابه "وسيلة الإسلام" على كتب عديدة موثوق بها، وقد استفاد منها جميعا واقتبس ما يريده منها بأسلوب حسن لطيف مشوق، تزخر تعابيره بالفوائد والوقائع التاريخية لنذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

1 - مسألة زيد ابن حارثة الذي اكترى من رجل بغلا وخرج معه فمال الكاري إلى خربة ليقتله. هذه المسألة جاءت في كتاب "الاستيعاب في معرفة الأصحاب" لابن عبد البر1 المتوفى سنة 463هـ، وقد ذكرها ابن قنفذ في كتابه وسيلة الإسلام اقتباسا بأسلوب حسن فيه توجيه وفائدة.

2 - حكاية نعيمان بن عمير الذي باع سويط بن حرملة فكاهة منه إلى طائفة من العرب حتى تدخل أبي بكر الصديق في القضية.

هذه الحكاية جاءت في كتاب الاستيعاب لابن عبد البر ج4 ص1526 وما بعدها. وقد ذكرها ابن قنفذ في كتابه "وسيلة الإسلام" بأسلوبه الخاص الذي يمتازبه ويدل على براعته ومقدرته في التأليف لا حرفيا كما يفعل بعض المؤلفين.

مخطوطة وسيلة الإسلام:

هو مخطوط مكتوب على ورق عادي سميك بخط واضح تتخلله بعض أغلاط، عدد أوراقه 51 ورقة، طول الصفحة 15.5 سنتمترا، وعرضها 8.5 سنتمترا.في كل صفحة 20 سطرا.يوجد هذا المخطوط مع كتاب آخر قبله مخطوط هو ألفية في سيرة الرسول صلى الله عليه

مؤلف هذا الكتاب وسيلة الاسلام علامة جزائري هو أحمد بن قنفذ القسنطيني. ليس لدينا من هذا الكتاب غير مخطوط وحيد لا ثاني له.

وقد ذكره مؤلفه ابن قنفذ في جملة أسماء كتبه التي ألفها، وذلك في آخر كتابه "الوفيات" الذي طبعه في مصر بدون تاريخ المستشرق الفرنسي هنري بيريس، وقد طبعت الوفيات في الهند أيضا.

قال ابن قنفذ:"وسيلة الاسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام" وهو من اجل الموضوعات في السير لاختصاره. وقد أعاد طبع كتاب الوفيات الاستاذ النويهض في بيروت سنة 1971 وعندما تكلم في الوفيات عن كتاب وسيلة الاسلام قال يعتبر ضائعا. أما ناشرا كتاب أنس الفقيروعز الحقيرلابن قنفذ بالرباط المغرب سنة 1965 الاستاذان محمد الفاسي وأدولف فور فقد ذكرا في أنس الفقير كتاب وسيلة الاسلام مجردا دون إشارة إلى مكان وجوده. كما ان الاستاذين نحند الشاذلي النيفروعبد المجيد التركي، قد ذكرا كتاب وسيلة الاسلام في كتاب

الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية لابن قنفذ الذي قاما بتحقيقه وطبعه بتونس سنة 1968 دون اي تعليق عليه، او ذكر للمكان الذي يوجد فيه، وهذا يدل على ان الكتاب وسيلة الاسلام نادرولا توجد نسخ مخطوطة له .

وقد رتب الكتاب على خمسة أبواب:

الباب الاول: في نسبه عليه الصلان والسلام وفي أسمائه وفي تاريخ ولادته ومن قام بحضانته.

الباب الثاني: في أزواجه عليه الصلاة والسلام واولاده وقرابته ومواليه وخدمه وخواصه.

الباب الثالث: في مبعثه عليه الصلاة والسلام وبعوثه وغزواته ووفاته.

الباب الرابع : في نبذ من معجزاته عليه الصلاة والسلام

الباب الخامس: في ذكر بعض أحواله السنية وفضل الصلاة عليه وعلى أهله وآله وسلم صلى الله عليه وسلم.